وذكر أن ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا - معبودات قوم نوح - كانوا رجالًا صالحين
أخذوا يقلدون فيهم بعد موتهم شيئًا فشيئًا إلى أن عبدوهم دون الله. وروى ابن جرير بسنده عن محمد
محمد بن قيس قال: إن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم
فلما ماتوا قال أصحابهم لو صورناهم كان أشوق لنا إذا ذكرناهم إلى العبادة. فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون
دب إليهم إبليس وقال لهم: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر. فعبدوهم. وقد نقل هذا سائر
المفسرين في تفسير الآية. وقد ذكر أهل السير كما تقدم في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العرب وقعوا في
الشرك وعبادة الأصنام من هذه السبيل: فذكروا أن الذي سلك بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه
كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم وصبابة بمكة. فحيثما حلوا
وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنًا منهم بها وصبابة بالحرم وحبًّا له... ثم سلك بهم ذلك إلى أن عبدوا
ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا
إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقي فيهم من
ذكرها... وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف
به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس
منه... ". وقد كانوا مصورين صور أصنامهم في الكعبة كما كانوا مصورين صور إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام. وقد وجد في الكعبة مئات الصور يوم الفتح فأزالها رسول الله وجعل يطرح
وكان يطرحها بقوسه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. وقد فصلنا هذا في الجزء الثاني في
أوله. فالعرب إنما وقعوا في الشرك من هذه السبيل - سبيل الابتداع والغلو في المخلوقات المعظمة - وكذلك
كل المشركين ما ضلوا إلا من هذا الوجه. وكذلك المسلمون لولا ابتداعهم وغلوهم ما صاروا
إلى ما صاروا إليه من هذه الوثنية الضارية أطنابها في كل مكان حتى في ... جدا لكم. فهم أولا
- أي أول ما دب إليهم الضلال ودب الداء القديم - ابتدعوا التعلق بالجاهات والحرمات والبركات
وألحوا الحقوق وزعموا أن لأشخاص أندادًا وحقوقًا وسلطانًا فدعوا الله بها وسألوه جاهًا بهم
متوسلين بذكرها. فظلوا عاكفين على ذلك عصورًا طويلة ثم ذهبوا يلتمسون ما هو أبلغ من هذا في
التوسل والتودد إلى الحق بالخلق فانتقلوا إلى سؤال هؤلاء الذين كانوا يتوسلون بحقوقهم فطلبوا الشفاعة
والتقرب إلى الله فظلوا زمانًا طويلًا يستشفعون بهم وهم أموات لا يملكون لأنفسهم شيئًا ولا
ولا يجيزون الزيادة. ثم طمعوا في ما هو أبلغ من الاستشفاع وأعظم فانتقلوا إلى الشرك
الصريح القبيح فعبدوا أولئك الذين كانوا يسألون بحقوقهم والذين كانوا يسألونهم
الشفاعة فقط فسألوهم كل ما يسألونه الله ويستمدونه، واستعاذوا بهم من كل ما يستعيذون بالله منه
وطلبوا لديهم الشفاء والعافية والغنى والحياة والموت وكل شيء يرجونه أو يخافونه والتجأوا
بهم وبأسمائهم كل هذه الهياكل المتناثرة اليوم فوق الأضرحة وتحت الأحجار والأشجار
والدور بأولئك الأشخاص. فقامت الوثنية التي حدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: لتتبعن
سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه"
فتمت المعجزة وظهرت الآية والله المستعان. ونحن لا نشك في تتابع هذه
الآفات البدعية والعقلية وتلاحقها وأخذ بعضها برقاب بعضها. ونحسب ولا
نشك في أنه لولا التوسل بالجاه والسؤال بالحق وما صاحب ذلك من المبتدعات
ما صار العالم اليوم إلى ما صاروا إليه من الكفر من الإلحاد ومن إنزال كل
الحاجات بهم وبأصحابها كما أننا لا نشك في أنه لولا هذه البنايات والمعلقات الخزاعبلات
البراقة المنصوبة على القبور كما نحسب لما أمكن ما كان مما يزدري عنه الدين وتأباه الكرامة
الإنسانية والعزة الإسلامية. فهذه الأشياء هي وسائل الشرك وذرائعه والإشهاد